

غزة ٢٠١٤... انتصار الصمود

## ربيع عيد\*

### انتفاضة فلسطيني ٤٨:

### مرحلة جديدة؟!\*

#### مقدمة

من دون أي تحضيرات مسبقة ومخططة للمواجهة والتصعيد مع الدولة العبرية، انفجر الشارع في الأراضي المحتلة منذ سنة ١٩٤٨ في أعقاب إحراق الفتى محمد أبو خضير واستشهاده، واستمر هذا الانفجار مع العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة. وعلى مدار أيام وأسابيع، استمر الحراك الشعبي والاحتجاجي على الرغم من محاولات الخنق الذي مارسته المؤسسة الإسرائيلية، ومحاولات القيادات التقليدية فرض التهدئة. والمشهد يذكر بأحداث تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٠٠ عندما خرج المواطنون العرب في إسرائيل إلى الشوارع التحاماً مع الانتفاضة الفلسطينية الثانية، مع الفارق أن الحكومة الإسرائيلية اختارت هذه المرة عدم قتل المتظاهرين، كما حدث في سنة ٢٠٠٠ حين استشهد ١٣ شاباً عربياً، وقررت عوضاً عن ذلك اتباع أسلوب الاعتقال وتوجيه لوائح الاتهام وممارسة سياسة الترهيب عبر الاستدعاء إلى التحقيق.

وهنا يُطرح السؤال بعد انتهاء الحراك، عن العلاقة الجديدة بين المواطنين الفلسطينيين في إسرائيل والدولة العبرية، في أعقاب الأحداث الأخيرة التي لم يُتفق على ما يبدو حتى الآن على تسميتها (في الداخل، وأيضاً على صعيد فلسطيني عام): هل هي هبة؟ أم انتفاضة ثالثة؟

ولعل أيام الغضب الثلاثة التي نظمها الحراك الشبابي في الداخل الفلسطيني ضد مخطط "برافر" الاقتلاعي في سنة ٢٠١٣، مهدت لشكل جديد من النضال والمواجهة انعكس على أحداث الصيف الماضي، وكانت سمته الأبرز إغلاق الشوارع والاستعداد للمواجهة مع قوات الشرطة التي كانت تطلق الغازات والمياه العادمة والرصاص

\* صحفي وناشط سياسي فلسطيني، وسكرتير تحرير صحيفة "فصل المقال" التي تصدر في الأراضي المحتلة منذ سنة ١٩٤٨.

المطاطي والحي في بعض الأحيان. ومن المحتمل أن يكون الفشل الإسرائيلي في تحقيق أهداف العدوان، وكذلك صمود المقاومة الفلسطينية ومفاجأتها الميدانية، أمور كلها أجلت نوعاً ما ردة فعل الحكومة الإسرائيلية.

## تسلسل الأحداث

بعد استشهاد الطفل محمد أبو خضير على يد ثلاثة مستوطنين إسرائيليين بتاريخ ٢٠١٤/٧/٢، بدأت سلسلة تظاهرات ووقفات احتجاجية على الجريمة البشعة في أكثر من عشر بلدات عربية، من الجليل حتى النقب، وخصوصاً مع ورود أنباء عن دخول عصابات من المستوطنين إلى البلدات العربية، وقيام بعضها بأعمال تخريبية، الأمر الذي زاد من حالة الاستنفار والشعور بالتهديد الذي تمثله عصابات لم تتورع عن خطف طفل قاصر مثل أبو خضير. كما أن هذا الشعور ارتبط بالاعتداءات التي مارستها في الأعوام الماضية عصابات ما يسمى "تدفيع الثمن"، والتي ازدادت حدّة في الأشهر الأخيرة ضد البلدات العربية في أراضي ٤٨، وتمثلت في كتابة شعارات عنصرية ضد العرب، وتخريب أماكن دينية كان أشهرها حرق مسجد في طوبا الزنغرية، وتكسير في المقبرة المسيحية في كفر برعم. وتناقل الفلسطينيون في الداخل أخبار هذه العصابات لحظة بلحظة عبر وسائل التواصل الاجتماعي التي رصدت الاعتداءات في مختلف القرى والمدن العربية، الأمر الذي دفع العديد من الشباب والناشطين والأحزاب إلى تشكيل لجان حراسة ليلية على مداخل البلدات العربية. ومثّل يوماً ٤ و٧/٥ الشرارة الأولى لصيف ملتهب، إذ شكلت المواجهات مع الشرطة مشهداً جديداً احتل عناوين الأخبار وأحاديث الناس، وذلك بعد محاولة فض الشرطة التظاهرات



تظاهرة الناصرة

التي تحولت إلى إغلاق شوارع و حرق إطارات. وتركزت هذه المواجهات بداية في قرى ومدن المثلث مثل: الطيبة؛ الطيرة؛ باقة الغربية؛ قلنسوة؛ عرعر؛ أم الفحم؛ كفر قاسم؛ جلجولية، لتمتد بعدها إلى الناصرة والجليل وقرى الساحل والنقب، في الوقت الذي كانت تنتشر أخبار المواجهات المفتوحة في شعفاط، والتي دامت أكثر من أسبوع بشكل متواصل، ولم تتمكن الشرطة الإسرائيلية خلالها من دخول البلدة، فضلاً عن انضمام القدس وأحيائها، وبعض المناطق في الضفة الغربية، إلى المواجهات، الأمر الذي أعاد إلى الأذهان انتفاضة القدس والأقصى في سنة ٢٠٠٠.

ويميل العديد من الناشطين إلى الاعتقاد أن لشهر رمضان الذي تزامنت الأحداث معه، إيجابية في خط سير المواجهات، كونه شهراً يجتمع فيه الناس على الإفطار والسحور، إذ كان بعض المواجهات يحدث قبل ساعة الإفطار، ثم يتجدد بعد الإفطار ويتواصل خلال ساعات السحور حتى الفجر، فتحوّل الناس من متابعة المسلسلات التي تتكثف في هذا الشهر إلى متابعة أخبار المواجهات، وتناقل الصور والفيديوهات عبر وسائل التواصل الاجتماعي، وخصوصاً بين الشباب الذين كانوا وقود هذه المواجهات ومحركها.

وأحصي في الأسبوع الأول أكثر من ٤٠ مواجهة بين الشرطة الإسرائيلية ومتظاهرين ملثمين كانوا يلقون عليها الحجارة والمفرقات النارية، وكذلك أخصي ١٠٠ نشاط آخر على شكل وقفات ومسيرات وفاعليات متعددة ضد الاحتلال. ويمكن تكوين صورة عما كان يحدث من خلال بعض عناوين الأخبار في المواقع المحلية في أول أيام المواجهات:

في ٢٠١٤/٧/٣، برزت العناوين التالية: "حيفا: مظاهرة تنديداً بإعدام الشهيد محمد أبو خضير"؛ "مصمص: الاعتداء على الشاب محمد فوزي من قبل مستوطنين"؛ "أم الفحم: اعتقال ٥ مشتبه بهم في إلقاء حجارة على الشرطة"؛ "الناصرة: مجهولون يلقون حقيبته مليئة بالقمامة مكتوباً عليها الموت للعرب"؛ "إعبلين: وقفة احتجاجية بإعبلين ضد التصعيد الإسرائيلي"؛ "وادي عارة: إشعال الإطارات ووجود شرطي مكثف"؛ "عارة - عرعر: الأهالي يطردون مركبة مستوطنين اقتحموا قريتهم فجراً"؛ "الناصرة: البلدية تناشد المواطنين الحذر من جماعات اليمين والتبليغ عن أي أمر غريب"؛ "كفر كنا: وقفة شبابية احتجاجاً على العدوان الإسرائيلي"؛ "بئر السبع: الموت للعرب، على سيارة أحد المواطنين العرب".

في ٤ و ٢٠١٤/٧/٥، سُجّلت العناوين التالية: "مواجهات في الطيبة والطيرة وبقعة وقلنسوة"؛ "عرعر قبل قليل: مواجهات على مدخل عرعر، واعتقالات وإصابات بصفوف الشرطة"؛ "قيادات الداخل: على إسرائيل لجم المحرضين وإلا ستطور الأمور"؛ "منطقة أم الفحم: رشق الزجاجات الحارقة قرب مستوطنة مي عامي"؛ "جسر الزرقاء: رشق سيارة للشرطة بالحجارة"؛ "المثلث الجنوبي: الشرطة تغلق شارعاً رئيسياً في المثلث الجنوبي بعد إحراق إطارات من ملثمين"؛ "أم الفحم: البلدية تشكل فرق حراسة تحسباً لاعتداءات المستوطنين"؛ "كفر كنا: شباب يطردون مستوطنين دخلوا البلدة"؛ "سخنين: مظاهرة حاشدة تضامناً مع الشعب الفلسطيني وشهيد الفجر"؛ "بئر السبع: عبارات تحريضية وانتقامية، الموت للعرب، في مساكن الطلبة في جامعة بن - غوريون".

في ٦ و ٢٠١٤/٧/٧، وردت العناوين التالية: "قُطرياً: تجدد الاحتجاجات في كفر كنا، تل السبع، باقة الغربية والطيبة"؛ "يافا: قطعان المستوطنين تعتدي على طفلة في حي الجبلية



تظاهرة أم الفحم

وتشكيل لجنة حماية شعبية؛ "كفر مصر: حرق إطارات مطاطية قرب مدخل القرية؛" "عرابة: مظاهرة غاضبة، إحراق إطارات، وتوتير أجواء؛" "الطيرة: حملة اعتقالات بعد منتصف الليل؛" "النقب: مواجهات واعتقال ١٢ في حورة، وتل السبع، واللقية، وعرعة النقب؛" "شفا عمرو: مُستعربون يختطفون سكرتير شبيبة التجمع؛" "إكسال: محاولة حرق مركز الشرطة الجماهيري؛" "طمرة: اعتقال ١٤ متظاهراً بعد مواجهات احتجاجية مع الشرطة؛" "جديدة - المكر: المئات يتظاهرون على مفرق البلدة، والشرطة تتأهب؛" "الطيبة: قائد منطقة الشارون يطلق النار على سيارة بالطيبة؛" "مواجهات في ختام مسيرة مهيبه في الناصرة، ومواجهات



تظاهرة وادي عارة

في وادي عارة": "نتسمرت عيليت: اعتداء على عرب"; "حيفا: مظاهرة ضد العنصرية وعدوان الاحتلال".

ازدادت المواجهات والتظاهرات الاحتجاجية في الداخل الفلسطيني، لكن الشرطة، وتزامناً مع بدء إسرائيل عدوانها على الشعب الفلسطيني في قطاع غزة، وبسبب خوفها من اشتعال انتفاضة في القدس والداخل الفلسطيني، امتنعت من إطلاق النار الحي على المتظاهرين تلافياً لسقوط شهداء في الداخل، وشنت بدلاً من ذلك حملة اعتقالات واسعة طالت المئات، وكان جلهم من الشباب، وقد اعتُقل قسم منهم خلال المواجهات نفسها، وقسم آخر بعد التظاهرات، إذ كانت الشرطة في كثير من الأحيان، وفي ساعات الليل المتأخرة، تدخل إلى المنازل لاعتقالهم، أو تسليمهم أمر استدعاء إلى التحقيق، وذلك بهدف ترهيب أهاليهم ومحاولة ضرب الحراك.

مع نهاية العدوان على غزة، وصل عدد المعتقلين إلى أكثر من ٧٠٠ شخص، وكان العشرات منهم من القاصرين الذين تعرضوا لمضايقات خلال فترة اعتقالهم. كما قدمت عشرات لوائح الاتهام ضد آخرين، وكلها حمل العنوان نفسه: الاعتداء على الشرطة ورمي الحجارة، وغيرها. ورُصدت أيضاً عشرات حالات الاستدعاء لناشطين ومشاركين في تظاهرات من أجل التحقيق معهم لدى الشرطة أو جهاز المخابرات العامة (الشباك)، وهي استدعاءات هدفها الترهيب. وقد حدث هذا كله خلال شهر واحد فقط.

ولم تقتصر عملية ضرب الحراك على هذا فحسب، بل تضمنت أيضاً بث خطاب التخويف والتهديد، وقيام جهات رسمية إسرائيلية بممارسة ضغوط على رؤساء سلطات المجالس المحلية العربية، الذين طالبوا الشارع بالتهدئة عبر بيانات أصدرها بعضهم، رافضين ما سمّوه أعمال الشغب التي تجلب الضرر، ومطالبين بأن يكون الاحتجاج سلمياً وحضارياً.

### رؤساء السلطات المحلية

بين هذه الضغوط، الاجتماع الذي عقده وزير الداخلية الإسرائيلي جدعون ساعر مع عدد من رؤساء السلطات المحلية العربية بتاريخ ٨/٧/٢٠١٤ في مجلس محلي جديدة . المكر، وصدر في ختامه بيان جاء فيه أن: "دولة إسرائيل تمر بأيام صعبة، علينا العمل جميعاً لتهدئة الأوضاع بين اليهود والعرب. هنالك كيانات تحاول تأجيج المشاكل، ويهمها أن تزداد الأحداث توتراً، وتتولى قوات الأمن ووحدات حفظ النظام أمرهم بحسب القانون." وأضاف البيان: "أغلب الجمهور لا يشارك في هذه الأعمال، ويستنكرها جملة وتفصيلاً. تهدئة الأمور هو مطلب الساعة لإعادة الحياة إلى مجراها الطبيعي في البلاد، وسنكمل سوياً العيش المشترك في هذه البلاد، ولن نسمح للمتطرفين بالمس بالتعايش المشترك والخاص في بلادنا."

كما وقّع رؤساء السلطات وثيقة يطالبون فيها "المواطنين بالتروي والمحافظة على العيش المشترك وعلاقات الجيرة الطيبة مع جيرانهم الإسرائيليين"، إلا إن عدداً من الرؤساء المحسوبين على الأحزاب الوطنية وبعد تعرّضه لضغط شديد، أكد في بيانات منفردة عبر وسائل الإعلام رفضه توقيع العريضة.

## لجنة المتابعة والأحزاب

شهدت لجنة المتابعة العليا للجماهير العربية في الداخل، وهي الكيان الذي يضم جميع الأحزاب والحركات السياسية في الداخل، نقاشات حادة بشأن دورها في الحراك الشعبي، وهو تحرك وصفه العديد من الناشطين بالمتأخر، وبأنه لا يلبي سقف التوقعات المنوطة بالقيادة السياسية لعرب الداخل، في ظل التباين بين أداء القيادة والشارع المشتعل، مع الإشارة إلى تفاوت المواقف بين مختلف الأحزاب.

وأحد الخلافات التي نشبت، كان الخلاف بشأن إقرار لجنة المتابعة تظاهرة وحدوية ضخمة في مدينة الناصرة، إلا إن رئيس البلدية علي سلام رفض استضافتها مدعياً أنه لم يتم التنسيق معه، وخشية من تصعيد الوضع واندلاع مواجهات، فضّت كتلة "التجمع الوطني الديمقراطي" في البلدية ("القائمة الأهلية") الائتلاف مع علي سلام، كما أن نائبه عوني بنّا استقال من منصبه احتجاجاً على مواقف سلام التي وُصفت بـ "غير المسؤولة من قبل رئيس بلدية أكبر بلدة عربية في الداخل".

وكان التباين واضحاً بين الشباب الناشط وبعض الأحزاب وبين القيادة التقليدية للمجتمع العربي وأحزاب أخرى، فيما يتعلق بسقف التصعيد في ظل الأحداث الجارية: تيار يرى ضرورة تصعيد سقف النضال وتنظيم التظاهرات وإغلاق الشوارع، وآخر يتخوف من اندلاع المواجهات ويرى ضرورة الحفاظ على علاقات جيدة بين العرب واليهود ويعتبر إغلاق الشوارع بمثابة عمليات تخريب للأماكن العامة.

وفي تصنيف لمواقف الأحزاب من الحراك الجاري، فإن "التجمع الوطني الديمقراطي" كان منحازاً إلى التصعيد والمواجهة، وبرز ذلك من البيانات التي أصدرها في أكثر من مناسبة، والتي كانت تحيي الشباب المنتفض في البلدات العربية، علاوة على تعرّضه لهجمة إعلامية إسرائيلية غير مسبوقة، ولا سيما ضد قياداته مثلما حدث مع النائبة حنين زعبي التي عملت وسائل الإعلام الإسرائيلية على تصويرها بأنها متطرفة، فضلاً عن ملاحقة قيادات التجمع التي كانت موجودة في قلب الحراك، وتعرّض شبابه للاعتقال. كما كان لـ "حركة أبناء البلد" موقف واضح للتوجه نحو التصعيد ومشاركة كوادرها في الاحتجاجات، وقد جرى اعتقال عضو المكتب السياسي رجا اغبارية. وفي المقابل، غابت الحركة الإسلامية بشقيها [الشمالي والجنوبي]، عن الأحداث حتى بداية العدوان، واقتصر دورها على البيانات، بينما غابت قياداتها عن الشارع، ومع بدء العدوان على غزة بدأت تنظم التظاهرات المنددة. أمّا "الحزب الشيوعي الإسرائيلي" و"الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة"، فلم يكونا متحمسين للمواجهات مع الشرطة، مع أن عدداً من كوادرهما شارك واعتقل، وتم التركيز أكثر على التظاهرات الكبيرة اليهودية - العربية المشتركة مع قوى اليسار الإسرائيلي في تل أبيب وحيفاً خلال العدوان.

## الحراك الشبابي

وفي عودة إلى الحراك الشبابي الذي بدأ يتصدر المشهد منذ مخطط "برافر"، فإن نشاطاته





تظاهرة حيفا

التي بدأت مع استشهاد أبو خضير فاجأت القيادات والأحزاب. فقد عمل بفاعلية، خلال الأيام الأولى لحراك الغضب، على التحشيد، علماً بأن المواجهات بدأها، بشكل عفوي، شباب معظمهم غير ناشط ولا منتم إلى أي حزب. وفي الأيام التالية، بدأ الحراك الشبابي يُعدّ نفسه، ويعقد الاجتماعات، وينظّم تظاهرات استمرت حتى انتهاء العدوان.

ونعني بالحراك الشبابي النشاطات التي كان يقوم بها الناشطون الشباب، إذ لا يوجد كيان أو حركة في الداخل الفلسطيني اسمها "الحراك الشبابي"، مع الإشارة إلى غياب ناشطي الحركة الإسلامية عن هذا النوع من الحركات، لأسباب اجتماعية وسياسية وتنظيمية. وللحراك الشبابي أكثر من شكل ومكان، فهناك المحلي في العديد من القرى والمدن العربية، وهناك القطري الذي كان ينظم تظاهرات في المدن الكبرى مثل الناصرة وحيفا، وقد استطاع جمع ناشطين من عدة بلدات.

وينتقد البعض أيضاً الحراك الشبابي، كونه كان يستطيع تنظيم نفسه أكثر، وزيادة شرائح المجتمع المشاركة، وتوسيع دائرة المواجهات على مختلف أشكالها، على اعتبار أن مفهوم المواجهة لا يقتصر فقط على المواجهة المباشرة التي تجري مع الشرطة في التظاهرات، بل يتضمن أيضاً مواجهة حالة الضعف أو الخوف والبلبلة التي تحدث في أوضاع استثنائية كهذه، ومواجهة محاولات كسر الصمود وإضفاء النفس الثوري الذي يجب الدفع به قدماً، من خلال تقديم نماذج نضالية أخرى مثل حملات إعلامية واجتماعية، وإطلاق حملات دعم للمحال التجارية العربية في ظل تخوف البعض من خسائر اقتصادية بسبب الحراك، والمبادرة إلى تنظيم حلقات توعية ونقاش وتثقيف، وأمسيات فنية وثقافية ورسومات جرافيتي.

### الفاشية الإسرائيلية

مع بدء العدوان على غزة، واستمرار التظاهرات والاحتجاجات، بدأ المجتمع الإسرائيلي

يصدر ردات فعل تجاه الفلسطينيين في الداخل، تمثلت في حملات إعلامية فاشية تدعو إلى مقاطعة العرب اقتصادياً. وشهدت وسائل التواصل الاجتماعي مثل "الفايس بوك" ظهور صفحات عنصرية بعضها كان يسجل ما يكتبه الشباب العربي على مواقع التواصل الاجتماعي ويحرّض ضدهم، وقد أدى ذلك إلى فصل العديد من العاملين العرب بسبب "ستاتوس" (status) ضد الحرب، أو مؤيد للمقاومة، أو بسبب صورة تفضح جرائم الاحتلال والعدوان.

ومن ضمن هذه الصفحات هناك صفحات "كشفت خائني إسرائيل" و"انتقام اليهود". وهذه الصفحات هي جزء من موجة التحريض المنفلتة ضد الفلسطينيين "مواطني إسرائيل"، والتي ازدادت حدتها في الآونة الأخيرة بسبب مواقفهم ضد العدوان على غزة. وقد وصلت موجة التحريض هذه إلى حد الدعوة العلنية إلى مقاطعة المصالح التجارية العربية، وسحب الجنسية من المواطنين العرب، بل إلى حدّ الدعوة إلى الاعتداء عليهم وقتلهم. علاوة على ذلك، تعرّض العشرات من العرب لاعتداءات عنصرية وجسدية من طرف إسرائيليين في مدن إسرائيلية، كما تعرّض طلاب جامعيون لملاحقة من قبل إدارة الجامعة.

### خلاصة

مع انتهاء العدوان على غزة، وتوقيع اتفاقية التهدئة بين الحكومة الإسرائيلية والجانب الفلسطيني، توقفت التظاهرات والاحتجاجات في الأراضي المحتلة منذ سنة ١٩٤٨، وذلك بعد جولة من المواجهات هي الأطوال في تاريخ عرب الداخل. وقد طرحت هذه المواجهات أسئلة جديدة وتحديات سياسية تتعلق بشكل العلاقة بين المواطنين العرب والدولة العبرية، فضلاً عن ضرورة إيجاد قراءة التفاعلات المتزايدة بين تجمعات الشعب الفلسطيني، وخصوصاً مع فلسطينيي ٤٨ بعدما صنفهم اتفاق أوسلو على أساس أنهم شأن إسرائيلي داخلي؛ ففي حالة تبلور مشروع وطني فلسطيني شامل مناهض لنظام الفصل العنصري في فلسطين، فإن العرب في الداخل بدأوا يشكلون حالة متقدمة في هذا المشروع.

ويمكننا الاستفادة من دروس انتفاضة ٢٠١٤ التي أكدت الحاجة إلى تنظيم المجتمع العربي الفلسطيني وتمكينه، وبناء المؤسسات، وضرورة تغليب العمل المشترك بين الأحزاب ووضع الاختلافات والخلافات جانباً، وإعادة هيكلة لجنة المتابعة والدفع نحو انتخابها وتقويتها. كما يقف الحراك الشبابي اليوم أمام مرحلة جديدة بعد تمكّنه من رفع سقف النضال السياسي، تتمثل في تنظيم نفسه أكثر، وقيام ناشطيه بقراءة معمقة للمرحلة، الأمر الذي يتطلب أن يستمر نشاط الحراك حتى في أوقات الهدوء، والعمل على بناء أرضية أمتن لمواجهات مقبلة. فالمواجهة الحقيقية لا تعني المواجهة مع الشرطة في التظاهرات فقط، بل هي أيضاً سعي لتغيير الإيقاع السائد، ووضع استراتيجيا نضالية للمستقبل، وتثقيف الشباب على النضال الوطني الديمقراطي والتمسك بالهوية الوطنية.

وفي المقابل، من المؤكد أن المؤسسة الإسرائيلية بدأت باستخلاص الدروس من المرحلة الجديدة في علاقتها مع المواطنين العرب، والتي لم تتوقعها يوماً، وستعمل على تعزيز مشاريع الأسرلة والطائفية والعنف داخل المجتمع العربي، وستفكر جيداً في آليات جديدة



للسيطرة، وخصوصاً على الجيل الصاعد الذي بدأ يأخذ زمام المبادرة ويفرض أسلوباً  
نضالياً جديداً.  
إن المرحلة المقبلة تحمل كثيراً في طياتها، ليس بالنسبة إلى الداخل الفلسطيني فحسب،  
بل على صعيد القضية الفلسطينية ككل، وخصوصاً بعد الحرب العدوانية الأخيرة التي، وإن  
كان الحكم عليها لا يزال مبكراً، فإنها بالتأكيد مرحلة مختلفة كلياً عما سبق. ■

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

## النكبة

### نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود

١٩٤٧ - ١٩٤٩

(ثلاثة أجزاء)

تأليف: عارف العارف

إعداد وتقديم: وليد الخالدي

١٥٥٨ صفحة ٦٠ دولاراً